

## القانون الطبيعي بين الرواقية والمسيحية عند توما الإكويني\*

أ. بلحنافي جوهر\*

الرواقية من الفلسفات التي شاعت في الفترة الهلنستية إذ نشأت حوالي (300ق.م). وكانت لفكرة الدولة العالمية أو وحدة الجنس البشري التي دعت إليها آثارا هامة في الفكر الروماني والمسيحي وخاصة في فلسفة السياسة، وتشريع القوانين، فالقول بأخوة المواطنة العالمية يعني بأن النواميس العامة للعقل الإلهي واحدة بالنسبة لجميع البشر على خلاف القوانين الوضعية، فقانون مدينة الكون هو واحد في كل مكان وسامي عن كل عرف محلي، وعلى هذا فهم يميزون بين الحق الوضعي والحق الطبيعي المستمد من القانون الطبيعي الذي يتضمن الثبات والدوام لأنه قانون الله (اللوغوس) وهو مطلق العدالة .

لقد أخذت المسيحية من الرواقية العديد من هذه الأفكار بحيث أنها صبغت فلسفتها بألوان مبادئ رواقية حتى تكون ملائمة للحياة الاجتماعية وطبيعة هذه العقيدة، وخاصة أنها الفلسفة التي كانت سائدة في روما آنذاك ،

فالأخلاق الرواقية كانت أساس تربية النفوس بالترفع عن أحداث الزمن، وهذا بالاعتصام بالارادة الصالحة والتسليم بأحداث القدر (القانون الكلي الشامل)، لأن الفضيلة، والخير والسعادة تكمن في أن يحيا الفرد وفقا للطبيعة، والإنسان حينما يحيا وفقا للعقل إنما هو يحيا وفقا للقانون الكلي الذي يحكم العالم، وأي شيء ضد الطبيعة يكون شرا أو رذيلة، ولكن إن كان الفكر المسيحي قد استمد منها بعض الأفكار أين يتجلى صداها ؟ .

## 1- أثر الرواقية على المسيحية

تميز القرن الثالث الميلادي بالتحام المبادئ الأخلاقية الرواقية بالمبادئ الأخلاقية المسيحية ، فقد اعتبر الرواقيون أن على الإنسان أن يعرف كيف يحيا حياة الفاضلة ، والحكمة هي التي تكفل تلك المعرفة ذلك "أن حياة الفضيلة هي حياة التأمل والتأني والانسجام مع النفس وتجنب اللذة في طريق كبح جماع الرغبات غير الطبيعية وغير الضرورية وفي هذه المفاهيم تتقارب في الجوهر والمنهج في الأخلاق الرواقية والأخلاق المسيحية"<sup>(1)</sup>.

فالمسيحية تدعو كذلك إلى ضرورة التجرد من الغرائز وكبح جماح اللذة والرغبات، حتى تبلغ السعادة أو الفضيلة "كما تتطابق الرواقية والمسيحية من زاوية اجتماعية، ذلك أن تعاليم الرواقية تؤكد على ضرورة التعايش مع الآخر وأن الواجب الاجتماعي يعد أشرف وأهم الواجبات أو الوظائف الفردية، لأن الإنسان لا يحيا مستقلا عن الآخرين أو بمعزل عنهم فالأخلاق الفردية في الرواقية هي بطبيعة الحال اجتماعية. فبما أن الإنسان مخلوقا قد أعدته الطبيعة للاجتماع والعمران فقد وجب على الناس أن يكونوا أخونا وأن يؤلفوا فيما بينهم "مملكة العقل" ووفقا لقانون الطبيعة فينبغي أن يتحابوا وأن يتواصلوا ، ويتعاونوا في سبيل العمل الشامل والخير المطلق.

لذا اعتبر القديس بولس الرسول نفسه مثل ابكتيتوس (فيلسوف رواقى لفترة المتأخرة 55-135 م) رسول الأمم وجنديا من جند المسيح فكلاهما يعلم أنه يستطيع على كل شيء يعول الله الذي يمنحه قوته، فكلاهما يعلم أنه إنما هو رسول ومبعوث من الله إلى الأرض لمهدي إلى خير ويرشد إلى فضيلة، فكلاهما ينظر لنفسه إنما وجد من أجل تأدية واجب أخلاقي والمتمثل في هداية الناس إلى طريق الخير والسعادة مهما كانت طبقتهم الاجتماعية، كما أنهما يتشابه في محاولة إقرار السعادة للعبيد والضعفاء والفقراء وكل الفئات الاجتماعية المقهورة، تلك التي "رأى

أفلاطون وأرسطو أنها غير قادرة على بلوغ السعادة على خلاف الرواقية والمسيحية، إذ يكتفيان لبلوغ السعادة بالعيش وفقا للطبيعة<sup>(2)</sup> أوالعقل" والعيش وفقا للطبيعة يعني العيش في صداقة مع الإله أو وفق لإرادة الإله عند المسيحية<sup>(3)</sup> لقد جعلت الرواقية والمسيحية بلوغ السعادة الفردية لأي طبقة كانت مشروط بخضوع السلوك للعقل أو الطبيعة أي القانون الكلي (الإلهي) فقط. كان للزرعة الإنسانية التي تميزت بها الفلسفة الرواقية وخاصة المتأخرة تواجدا قويا في الفكر المسيحي وخاصة في دعوتها لسموا الأخلاقي للأفراد ضرورة التعاون تقتضي من الجميع حسن المعاملة والوثام والاتحاد.

لقد استحوذت على المسيحية فكرة تأصيل الإنتم في الطبيعة الإنسانية فالخطيئة هي نتاج للوجود الجسماني وأن ألم الإنسان هو العقاب المستحق إما عن خطايا فعلية مرتكبة أو حتى على مجرد ميل نحو الخطيئة الذي ينجم عن النوازع الجسدية، فان كل من يحيا في تناغم مع قانون الطبيعة سيبقى متحررا من نوازع الجسدية وسيكون في حالة خلاص فتحقيقا الخلاص يكون إلا بالفضيلة .

وقد اعتبر سنيكا (فيلسوف رواقى للعصر الروماني عمل مربى ثم وزيراً لنيرون (3ق.م-65م) أن الجسد ليس إلا قيذا للروح فيتعين على الروح أن تكافح عبء الجسد وقد ركز سنيكا في أفكاره السياسية على أن الطهر البدائي قد فقده الإنسان نتيجة فساد الطبيعة البشرية فكانت الحكومة وليدة الشر الإنساني ووسيلة لعلاجه لذا فهو يميز بين نوعين من المدينة مدينة سماوية وأخرى أرضية، فان كانت الرواقية قد أنقصت من قيمة الفوارق الإجتماعية فقد سعت إلى زيادة الارتباط وانسجام بين الدول بما انه يوجد قانونان قانون مدينته وقانون المدينة العالمية والتي تتطلب تقدير القيمة المعنوية لصفتي "الرقة والعطف وهما من الفضائل التي تنسم بها الفلسفة الرواقية كما اتخذت أبوة الله والأخوة الناس ومن معاني المحبة

التي تتحكم في الجنس البشري كله ، وهذه هي نفس المعاني التي تمثلت في تعاليم المسيحية كالرحمة، والترفق، الخير وحسن المعاملة، وسعة الصدر، وحب الناس، ارتفعت هذه الفضائل إلى مكان الصدارة كما استنكرت الكراهية، الغضب والعنف في معاملة التابعين أو أقل منزلة<sup>(4)</sup>. فالمدينة العالمية عند الرواقين هي التي تصير مدينة الله في الفكر المسيحي وفيها تذوب المشاحنات والاختلافات لأنها تقوم على مبدأ اتحاد القلوب .

لقد اقتبس الفلاسفة المسيحيون من الرواقية الكثير من القيم الروحية التي تنطوي على عقيدة دينية كالتى دعا إليها ماركوس أوليوس (الإمبراطور روماني وآخر فيلسوف رواقى (80- 121 م) بإطالة التأمل في الحياة الروحية فالجسد ليس إلا قيذا للروح وظلماتها لذا يتعين على الروح أن تكافح عبء الجسد وكان هذا المفهوم في الحق هو طابع المجتمع الوثني الذي نشأت المسيحية في ظله وترعرعت.

## 2- اللوغوس وامتداده في المسيحية

أظهرت إحدى الدراسات الأمريكية إلى قام بها كويلسون F.Capleston حول تاريخ الفلسفة، سنة 1965 بنيويورك، أن فكرة اللوغوس، العقل أو الكلمة التي وردت في كتاب التأملات لماركوس أورليوس والتي يذهب فيها إلى أن العقل ذو طبيعة إلهية إنما هي فكرة مطابقة لمعنى الكلمة في المسيحية والتي يرمز بها إلى المسيح.<sup>(5)</sup>

لقد طابق الرواقيون الإله بالكلمة، وكانوا يقصدون بالكلمة قانونا ذاتيا للعالم، فهو المبدأ الذي تتحرك الأشياء طبقا له وهو القدرة الخالقة لحركة سائر الأشياء فقد وصف الرواقيون الإله بالعناية، فهو النار الخالقة واللوغوس (الكلمة) والمبدأ أو (الطبيعة) والقدر، كما هو القانون الأخلاقي الذي أطلق عليه كانط العقل العملي.<sup>(6)</sup>

وقد أكدت هذه الدراسة أن العناية التي هي العلة الأولى للكون حسب الرواقيين هي ذات العناية التي يتحدث عنها المسيحيون وهي إحدى صفات الإله وتشمل الكون بأسره، غير أن الكلمة عند المسيحية تعني إلهها عاقلا.

لقد طبق الرواقيون مفهوم اللوغوس على الجانب السياسي وباعتبار أن القانون الطبيعي عالمي فالفرد عند الرواقين هو مواطن عالمي له حق في الكرامة الإنسانية والاحترام، بحكم الأخوة الإنسانية، فعلى أساس القانون الطبيعي تم تجاوز مفهوم مواطن دولة المدينة، والتفاوت المصطنع الذي أقره فلاسفة اليونان إلى النظرة إلى جميع الأفراد متساوون في الحقوق السياسية .

فالفرد باعتباره كائنا مفكرا بالدرجة الأولى ينتهي إلى المعقولية والرشد ويمكن أن يدرك حقائق الأمور، كما توضحها الطبيعة، وأن الرشد والمعقولية يتميز بهما الأفراد جميعا أي لا تقتصر على عنصر أو فئة أو جنس معين<sup>(7)</sup> على خلاف ما اعتقده فلاسفة اليونان كأرسطو إذ جعله مقتصرًا على الاثنين من المواطنين وهو ما اعتبره أفلاطون مقتصرًا على الفلاسفة الحكام فقد جعله الرواقيون صفة أساسية لكل فرد ككائن راشد وعادل، فالعقل والحكمة خاصيتان إنسانيتان يمتز بهما كل إنسان .

ومن هذا المنطق نتجت المبادئ الأساسية التالية :

- يحكم الكون قانون طبيعي واحد لا يتبدل وأن هذا القانون الطبيعي يمكن أن يدركه العقل الإنساني وأن الخروج عليه هو الخروج على طبيعة الأشياء.

- وأن الأفراد متساوون بحكم تمتعهم بالرشد والعقل فالجميع ينتمون إلى مملكة العقل.

- لذا فجميع الأفراد ينتمون إلى أخوة عالمية، وبالتالي يتخطون على أساسها حدود الدولة، فالدولة في رأيهم ليست بالضرورة الوحدة الأساسية التي يمكن أن تحقق للفرد ذاته وأن تحقق الفضيلة (كما هو الحال عند أفلاطون وأرسطو) بل إن على الأفراد التطلع إلى خارج إطار الدولة أي إلى العالم ككل.

فقد فصل الرواقيون بين الأخلاق والسياسة "واعتبروا أن الأخلاق وحدها دون السياسة هي القوة المحركة للأفراد وأن حياة الفرد أسى من الحدود التي تفرضها الدولة عليه وأن الدولة ليست الوسيلة الوحيدة التي يظهر فيها الرجل الفاضل"<sup>(8)</sup> فالنظرة لحقوق الإنسان منبثق من مبدأ عالمي قائم على العدل وهو جزء لا يتجزأ من الوعي الأخلاقي. وبذلك فإن كل إنسان يشارك في العقل بموجب هذه الحقيقة التي مؤداها أنه موجود إنساني ومنه منح الرواقيون كل موجود إنساني حق المواطنة العالمية، ومنها اشتقوا بعض القوانين السامية.

### 3- العالمية والمساواة

ينتمي الإنسان لمجتمع أكبر هو الإنسانية ككل بصرف النظر عن النظام القائم في دولته، فهو مواطن عالمي فالجميع يتمتع بالعقل والحكمة فجميعهم ينتمون إلى جماعة عالمية طبيعية واحدة وعلى هذا دعا الرواقيون إلى جامعة إنسانية في العالم ككل والذي أطلقوا عليه بمدينة العالم. *Cosmopolis* رمز الترابط والوحدة من كل أجزائه في كل واحد، حيث يعيش الأفراد جميعا في إطار هذه العائلة العالمية الكبيرة التي لا تحدها حدود سياسية أو انقسامات مفتعلة"<sup>(9)</sup>

وعلى هذا وإن كان الرواقيون قد وضعوا الأسس الفكرية للعالمية على المستوى الفلسفي، فإن العالمية من بعدهم قد استمرت في شكل قانون إداري في ظل الإمبراطورية الرومانية ثم في شكل ديني وسياسي في ظل الفكر

السياسي المسيحي. وعليه فلقد مهدت الرواقية الطريق للمسيحية لاستنباط مبادئ للتنظيم الحياة الاجتماعية تتضمن بعض خصائصها في اتصالها بالنظام السياسي وخاصة في القول بالزرعة العالمية.

آمن المسيحيون كما آمن الرواقيون من قبل بقانون الطبيعة وبحكومة أرضية تحوطها العناية الإلهية وبمساواة جميع البشر أمام الله، إذ كتب بولس مستنكرا التفريق بين الناس على أساس الجنس أو المركز الاجتماعي حيث يقول " ليس هناك يهود وإغريق، ولا حر وعبد ولا ذكر وأنثى، فكلهم سواء في يسوع المسيح"<sup>(10)</sup> فالمسحية كالرواقية لا تعترف إلا بفضيلة تدعو جميع الموجودات العاقلة إلى محبة البشر جميعا، من غير النظر إلى ما يفرقهم من جنس أو لغة أو دين، فقد كان ابكتيوس يردد لا ينبغي لأحد منا أن يقول أنا أصيني أو أنا روماني ، بل يقول أنا مواطن ووطني الكون كله.

إن فكرة الوحي الإلهي لم تكن في واقع الأمر تتعارض مع فكرة القانون الطبيعي فهو بدوره قانون إلهي في نظر الرواقيين وقد كتب بولس خطاب موجه لقادة الرومان قائلا " أعطوا الجميع حقوقهم"<sup>(11)</sup> إن نظرة آباء الكنيسة للقانون الطبيعي باعتباره أساس المساواة الإنسانية، وضرورة لتوفر العدالة في الدولة لا تختلف عن نظرة شيشرون وسنيكا.

وعلى هذا فإن من أهم الأسس العامة التي تشترك فيها الرواقية والمسيحية، هو القول بسمو الحق الطبيعي في المدينة الأرضية والأولوية دائما للحقوق التي تمنحها الطبيعة للبشر في هذه الحياة لأن القانون الطبيعي هو أساس الحياة في المدينة الإلهية *la cité du dieu* التي استمدت من الفكر الرواقي رأيهم .

إن حقوق الطبيعة هي التي تسمو على كل ما عداها من حقوق وتفوق كل ما يمكن أن يعيء به البشر من تنظيمات فهذا الحق الطبيعي ما

هو إلا انعكاس للقانون الإلهي الذي يعيش في قلوب البشر ويمتزج بأفئدتهم ولذلك فهو قانون عام يخضع لأوامره ونواهيه كل البشر"<sup>(12)</sup>، ففيها تأكيد لحق الكرامة الإنسانية ، لقد اعتبرت المسيحية أن للفرد حقوق فطرية خالدة وهما له خالقه، لذلك فقد ساهم الفكر المسيحي في تعزيز والتأكيد على حقوق الإنسان وجعلها تقوم على دعائم أخلاقية . لذلك المسيحية نادت بالمساواة التامة بين الأفراد، وترى أن هذه المساواة وأن تعذر قيامها في العالم الزمني فهي حقيقية وهي أساس العلاقة بين الأفراد وبين الخالق"<sup>(13)</sup>.

اعتبرت المسيحية المساواة الطبيعية والحرية الطبيعية أكبر دعامتين في هذه الدنيا، "فالإنسان مساو تماما للإنسان أينما كان وحيثما وجد إذ أن الإنسانية جمعاء على ذات الصلة بالله عز وجل وهذه الصلة المشتركة بين كل بني البشر تجعل الجميع متساوين في كل شيء"<sup>(14)</sup>. فبحكم العقل أو اللوغوس يتساو الإنسان مع أخيه إنسان في جميع الحقوق، ويصبح هذا الحق هبة طبيعية، ويفعلها تسمو بالذات الإنسانية وتجعل لكل فرد حق في الكرامة الإنسانية مهما كان جنسه أو طبقتة حتى وان كان عبدا ذلك لأنه يحكمه قانون إلهي وهو القانون الطبيعي وهو لا ينتهي إلى المدينة الأرضية فحسب بل المدينة أكبر تتجاوز حدود القانون الأرضي الزمني.

فكما جعل سنيكا الإنسان ينتهي إلى دولتين ، فقد اعتقدت المسيحية بوجود مدينتين وأن هذا العالم الأكبر الذي تكلم عنه سنيكا ليس مجرد أسرة إنسانية فحسب "وإنما صار يعني مملكة روحية، مملكة الله الحقنة التي يرث فيها الإنسان حياة خالدة ومصيرا يفوق سمو أية حياة تستطيع أية مملكة أرضية أن تمنحها له"<sup>(15)</sup>

أدت فكرة المدينة العالمية أو القانون الطبيعي الرواقية تحولا عميقا في فكرة القانون وماهية الدولة، إذ لم يكن للنظرية المسيحية في



بدايتها أساساً قانونياً أو سياسياً ذلك أنها اقتصرت على المدلول الأخلاقي فالقول بمبدأ المحبة ساعد على ارتقاء بالضمير، كما أن القول بالحرية والمساواة بين الناس قد انسجم مع التعاليم الانجيلية، فمن خلال دراسة الوصايا العشر من الإنجيل ثم استنتاج المبادئ العليا للقانون الطبيعي بحث أضافوا إليها من نظريات فقهاء الرومان من الذين تأثروا بهم من فلاسفة الإغريق والرواقيين بحيث سلموا بالقانون الطبيعي .

لقد تقبلت المسيحية المفهوم الروماني بوجود المستويات الثلاثة للقانون (القانون المدني، قانون الشعبي وقانون طبيعي). "فالقانون الطبيعي حل محله إيمان رجال الكنيسة بالقانون الإلهي المستمد من العهد الجديد (الإنجيل) واعتبر رجال الكنيسة أن الأفراد قد عاشوا أساساً حياة مثالية سعيدة تقترب مما وصفه الرواقيون بالطبيعة بما وصفه سنيكا بالعصر الذهبي، وأن هذا الوضع المثالي تحقق في معيشة الأفراد في جنة عدن وأن تدهور الأفراد جاء نتيجة عدم طاعتهم للإله وبالتالي ارتكابهم للمعصية أو الخطيئة الأولى وأن الخلاص من الشرور الدنيوية والخطيئة يوجد في طاعتهم للقانون الإلهي"<sup>(16)</sup>

إن فكرة سنيكا عن الحالة الطبيعية قد وجدت لنفسها صدى عند رجال الديانة المسيحية، فيستدل على الإيمان في طهر الحياة البدائية من قصة الخطيئة الإنسانية وهبوط الإنسان الأول إلى الأرض، لذلك "فاضت أحاديث المسيحيين عن الزهد وإقران الفقر بالعفة، وقد اعتبر الفقر أكثر مكانة من الثروة من الناحية المعنوية وأن حياة الرهبة أفضل من الحياة الدنيوية"<sup>(17)</sup>

فالكمال حسب المسيحية وسنيكا إنما وجد فقط في ظل الطبيعة الإنسانية الفطرية الطاهرة، غير أن قول المسيحية بالنظام الطبيعي في تسير أمور الدنيا وحفظ الحق، لا يقابله دعوة المسيحية إلى ضرورة التخلي على النظم السائدة هي عبارة عن وسائل ضرورية لعلاج المجتمعات "إذن كل

هذه النظم التي تقوم عليها المجتمعات المختلفة إنما هي من محض اصطناع اختلقه البشر من أجل حياة منظمة تخرج بهم من حالة الطبيعة الأولى" (18) .

وهنا يأخذ الفكر المسيحي بفكر سنيكا السياسي الذي يرى أن في الطغيان أو النظم السائدة وسيلة لعلاج المجتمع من الفوضى والفساد الذي يعم الأفراد حيث يقول سنيكا" تعاقب هذه النتائج هو الذي أدى إلى ضرورة قيام القانون، واستنباط وسائل القسر والإكراه للحد من مساوئ الطبيعة البشرية ومفاسدها وبعبارة مختصرة فإن الحكومة هي الدواء الضروري لعلاج الشر المتأصل في الإنسان" (19) .

فالمسيحية لم تعارض الأنظمة السياسية السائدة بحيث بقي نظام الرق معترفاً به كنظام من أنظمة الدولة، رغم تأكيدها على الأخوة بين الناس، كشرعية إلهية وقد اعتبر بعض آباء الكنيسة أن الرق هو التدريب على الصبر والطاعة اتجاه أسيادهم وعلى السعادة ضرورة التعامل معهم بالرفق أي لم يناد أحدهم بضرورة إلغاء الرق فوراً بل اكتفوا بالنصح بتخفيف وطأته بمبدأ المحبة" أعطوا ما لقيصر لقيصروما لله لله " .

فعلى الرغم أن المسيحية أخذت من الرواقية مفهوم المساواة العالمية غير أنها لم تقصد بذلك المساواة العالمية بين البشر باعتبارهم بشر، فهي لا تؤكد على المساواة المطلقة كما هو الحال عند الرواقية، أي الوحدة الطبيعية البشرية فما جعله الرواقيون لجميع أفراد الجنس البشري، جعله المسيحيون خاص بهم فقط، يحين نجد بوليس الرسول قد ميز بين البشر من حيث أبناء الحرة والجارية حيث يقول في الإصحاح الرابع 21-31 بالاستشهاد من التوراة، أو العهد القديم من الكتاب المقدس، رأت السارة ابن هاجر المصرية الذي ولدته لإبراهيم بمرح فقالت لإبراهيم أترد هذه الجارية وابنها، لأن ابن الجارية لا يرث مع ابني إسحاق" (20) .

فعلى الرغم أن بولس الرسول قد سبق وأن أكد على المساواة من خلال قوله " لا عبد ولا حر ولا ذكر ولا أنثى لأنكم جميعا واحد على وحدة الطبيعة البشرية، وفي محاولة التوفيق بين المساواة وعدم المساواة يوجد الرق ،فقد أوضحوا بأن قبل ارتكاب الخطيئة كانت المساواة المطلقة والحرية التامة، فعدم وجود المساواة على الأرض بالنسبة لبعض الأفراد (العبودية) فإن ذلك أمر عرض دنيوي فقط فعليه أن يتقبله كنوع من التكفير عن الذنب لأن المساواة والحرية موجودة في الحياة الأبدية ورق يمثل عبودية للجسد أم الروح فهي طليقة مع ذلك فقد كانت لفكرة المساواة باسم القانون الطبيعي بالغ الأثر بحيث انتقلت إلى فقهاء الكنيسة في القرون الوسطى وتطورت على يد الفلسفة المدرسية وعلى رأسها القديس توما الأكويني والقديس أوغسطين، وبالرغم من التغير الذي أحدثته المسيحية على مفهوم القانون الطبيعي إلا أنه لم يفقد عناصره الأساسية بل اكتسب من التعاليم المسيحية حياة جديدة ،لقد أحدثت النظرية المسيحية تخفيفا تدريجيا وإنسانيا لأنظمة القانونية متعددة بإعطاء أهمية كبرى بتحريم التعسف في استعمال حق الملكية، محاربة الطلاق والعلاقات غير المشروعة وتعريض الأولاد للخطر.

#### 4- القانون الطبيعي والمساواة عندتوما الاكويني (Tomas d'Aquinas) (1225-1274)

لقد كان لفكر الرواقي القائل بأن العالم كله يخضع لقانون واحد، ولا يخضع لحكومة واحدة أثرا كبيرا على المسيحية التي نادى بدورها بخضوع الناس للقانون الطبيعي، والقول بفكرة المساواة الرواقية أي مساواة جميع الأفراد أمام القانون. فلقد اصطبغت فكرة القانون الطبيعي بصبغة دينية في كنف الكنيسة، فالحاجة إلى فكرة القانون الطبيعي كانت من أجل الحد من سيادة الدولة وطغيان الملكية الفردية ولحماية الأفراد من طغيان الدولة على المستوى الداخلي، أي أن الفلسفة المسيحية حاولت تنظيم علاقة الحاكم بالمحكوم، وهذا بتوجيه الحاكم إلى ضرورة حب

رعاياء، حيث يستند في حكمه إلى نظام قانوني غايته تحقيق العدل والمساواة وإرساء الأمن والسلام والحق.

تجلى تأثير الفكر الرواقي في فلسفة توما الأكويني واضحاً، إذ اعتبر أن المسيحية جاءت لتبشر بدين يدعو إلى السلام، والمحبة، وكذا القول بالحقوق الطبيعية وأولويتها في حياة البشر، وهذا التمييز بين القانون الطبيعي والقانون الوضعي، فالحقوق الطبيعية هي التي تتميز على ما عداها من حقوق، وتفوق كل ما يمكن أن يجيء به البشر من تنظيمات، فالحق الطبيعي ما هو إلا انعكاس للقانون الإلهي الذي يستحوذ على قلوب البشر.

واعتبر توما الأكويني "أن القانون الطبيعي هو المنظم الأساسي للأخلاقيات، لما تغرسه الطبيعة من خير وتجنب الشر، من سائر الكائنات الناطقة غير الناطقة فهو هبة من الله للبشر يحمل المساواة"<sup>(21)</sup>

فهذا القانون هو هبة من الله للبشر، صادر من الواحد الأزلي ثابت يحمل المساواة والعدالة، لا يقترب من تعديله بشر ولا يلغيه حاكم، فتعاليمه ليست أحكام من إبداع البشر ولكن يمكن الوصول إليها بالعقل. "لقد تبى توما الأكويني مبدأ القانون الطبيعي الذي نادى به الرواقيون، إلا أن الاختلاف بينهما يكمن في أن القانون الطبيعي بالنسبة للرواقيين يحل في الطبيعة بشكل مباشر، أي يتميز بالتسامي بينما يتميز بالتسامي ويحل في الطبيعة بشكل غير مباشر."<sup>(22)</sup> عند توما الأكويني بما أن الكنيسة هي الوصية وتعمل على تحقيقه، لقد نظر توما الأكويني إلى القانون الطبيعي كونه "يتميز بشيء أوسع من مجرد وسيلة لتنظيم علاقة الناس بعضهم ببعض فإن القانون جزء لا يتجزأ من نظام الإلهي الذي يسيطر على كل شيء في السماء والأرض، بل كان يعتبره قبسا من حكمة الله ينظم العلاقات بين جميع المخلوقات"<sup>(23)</sup>.

وفي هذا تتجلى رؤية الرواقين القائلين كما سبق الذكر بوجود تنظيم منطقي للعالم تنعكس آثاره على المجتمع البشري، فالحاكم إذا استند على القانون الطبيعي الذي خص الله به الإنسان باعتباره جزء من العقل الإلهي فسنعكس آثاره على الحاكم والمحكوم بحيث سيعم الاستقرار وتسود المحبة بين المحكومين.

فهذا القانون هو أساس تحقيق العدل والمساواة وهو الكفيل بضمان للفرد حياته وسلامته. مادمت الإرادة تابعة للعقل فستميل إلى الخير، فإذا كان الفعل موافقا لحكم العقل كان خيرا، وان كان منافيا لحكم العقل كان شريرا، وكل هذا يقره القانون الطبيعي وما يلقيه في الإنسان بالنظر إلى مايليق به أن يكون عليه، وفي الأشياء المحيطة به، أثرها فيه، والجماعات الإنسانية هي راجعة إلى العقل والإرادة، وهي تقوم على ضرب من التعاقد، فكذا أكد شيشرون (مفكر سياسي روماني 42ق.م-106) كتابه الجمهورية على أن القانون الطبيعي ينبثق من العناية الإلهية للعالم كله كما تنبثق من الطبيعة العقلية والاجتماعية للبشر التي تلزم جميع الناس والأمم بأحكامه.

كما اعتبر توما بأن السلطة السياسية تستمد قوتها بمقدار اقترابها وتمسكها من القانون الطبيعي، وعلى القانون الوضعي الواجب الأكثر من تفسير القانون الطبيعي، مثل تحديد العقوبات، الجرائم أي الجرائم التي يجرمها القانون الطبيعي "وأن هذا المضمون مبني على علاقة الإنسان بالله، فالإنسان مدفوع لأن يكون صورة الله في سلوكه"<sup>(24)</sup>

فالقانون الطبيعي هو القانون العقلي، وإن الله لا يأمر شيء إلا أنه حسن بحسب العقل، ولا ينها عن شيء إلا لأنه قبيح في نظر العقل "إن الأشياء في القانون الإلهي مأمور بها لأنها حسنة ومنهى عنها لأنها قبيحة ونظام العدل يأتي من عند الله وكذلك نظام الطبيعة"<sup>(25)</sup>

وهنا يظهر تأثره بالفكر الرواقي خاصة الروماني الذي يعتبر أن القانون الكوني ينبثق من واقع العناية الإلهية للعالم كله وهو الذي يجعل الجنس البشري أقرب ما يكون إلى الله، والدولة لا بد أن تخضع للقانون الأعظم وهو قانون الإله الذي يمثل أعلى قواعد الحق والعدالة والخير وينه عن الشر. وبناء على ذلك فقد جعل توما الأكويني أساس نظريته السياسية والقانونية تقسيم القانون إلى أنواع (أبدي، طبيعي، بشري).

وكان جوهر فكره هو محاولة الإعطاء الأولوية للعقل بحيث يرى ضرورة اعتماد القانون الوضعي على القانون الطبيعي. "لأن القانون الطبيعي هو الذي يجعل الأفراد يحافظون على بقائهم، وهو الذي يدفعنا لاستعمال العقل للبحث عن قواعد التي تمكن طبقات المجتمع من التعايش مع بعضها البعض في سعادة طبيعية."<sup>(26)</sup> فالسلطة السياسية تستمد قوتها بمقدار تمسكها بالقانون الطبيعي، فالعدالة لا تتحقق في نظره إلى في ظل حكومة عادلة ومنصفة لرعاياها، حيث يحترم فيها القانون.

لذلك يجب أن يعتمد القانون الوضعي على الطبيعي وهذا حتى يمكنه من معالجة ظروف الاجتماعية حيث يتم تغليب صالح المجتمع على صالح الخاص، فنجاح السياسة يقوم على مبدأ العدالة الاجتماعية التي من شأنها توجيه جميع السلوك البشري إلى الصالح العام. فالانحراف القانون المدني عن القانون الطبيعي لم يصبح قانونا بل هو انحراف للقانون، لأن عدالته والزام للضمير ذلك أن القانون الطبيعي يختص مسعى الإنسان نحو الأعمال الصالحة ويحرم كل الأفعال التي تنتهك العمل الصالح، وعلى هذا فإن كل عمل يتنافى مع الأخلاق يتنافى بالضرورة مع القانون الطبيعي.

والقانون الطبيعي هو أساس استنتاج واستنباط ما ينظم العلاقة بين البشر في صورة قوانين وضعية، فهو بمثابة روح المجتمع يؤمن العدالة بين الأفراد ويسعى لتحقيق المصلحة المشتركة. لقد جعل توما القانون الطبيعي بمثابة عهد بين الله والبشر، فقوانينه ثابتة تسعى إلى الخير ونبذ الشر.

فعلاقة القانون الطبيعي بالواقع تتحدد في علاقة الضمير الأخلاقي للفرد بوجوده الاجتماعي بحيث فبفعله الفضيلة وبدونه يأتي الرذيلة.

كما تأثر توما الأكويني بالفكر الرواقي وخاصة شيشيرون فباعته فبأن الكون له خالق أطلق عليه اسم الطبيعة، تأثر كذلك بأرسطو في قوله بأن عصيان القانون الطبيعي أمر يدل على الشر والبعد عن الخير، وأن الإنسان حيوان اجتماعي بطبعه وبناء عليه طالما يعيش في مجتمع لا بد له من قانون ينظم العلاقة بين الأفراد، وطاعته واجبة فهو صادر من الطبيعة. وأخذ من الرواقين رأيهم في وجود تنظيم منطقي للعالم تنعكس آثاره على المجتمع البشري، أي إذا كان الحاكم متمسكا بنصوص القانون الطبيعي الذي خص الله به الإنسان لأن يهتم بشؤونه وشؤون غيره، لأنه جزء من العقل الإلهي، حيث تنعكس آثاره على الحاكم والمحكومين .

رغم تأثر توما الأكويني بالفكر الرواقي وحضور هذا الفكر في فلسفته إلا أنه يوجه اختلاف في نظرتهم ذلك إن الرواقية ترى أن نظام الطبيعي ينظمه الله، وباسمه الناس جميعهم متساوون حتى ولو تفرقوا في المدن وشعوب كان لكل منهما قوانينه الخاصة أي أن الرواقية جمعت بين القانون الطبيعي والمدني، فالجميع يخضعون لنظام واحد، فهم متساوون، ذلك أن الفلسفة الرواقية تقوم على إيمان بوحدة الطبيعة وكمالها لأن الطبيعة ذات سمات إلهية، بينما الفلسفة المسيحية ترى في القانون الطبيعي تفسير لطبيعة الإنسان وعلاقته بالله وبالطبيعة، والفكرة المركزية هنا هي العلاقة بين الطبيعة والوحي وقد أصر توما الإكويني على أن النعمة لا تنفي الطبيعة بل تكملها. ترى المسيحية في القانون الطبيعي تظهر قيمة الإنسان وتؤكد على تفاعله مع بيئته بضرورة انسجام مع غيره وأداء لواجباته . فالقانون عند توما الأكويني يحمل في طياته قوة جبرية في الفرد حيث يكون الإلزام فعل إرادي يجبر فيه الفرد نفسه إتباع وصايا الإله .

وعلى هذا فإن إحلال النظام يبدأ بالاعتراف بوجود الله والسعادة هي الهدف الأسمى يحصل عليها الفرد إذا اهتدى إلى الله وتعرف عليه بالفعل ، و في هذا يتفق والفكر الرواقي الروماني الذي يعتبر بأن معرفة بمنظم الكون اللوغوس وسير بمقتضى قوانينه هي التي تبعث في الروح الإنسانية الأمن والاستقرار كما أنه يتفق كذلك والفكر الرواقي في رفض الرق باعتبار أن الطبيعة الأخلاقية لا تخلق عبيدا وأحرار، ولكن تخلق بشر ترعاهم وتحافظ عليهم.

كما أنه نادى بالحق بانتقاده لسلطة حيث يظهر تأثيره بالفكر الروماني بأن لكل فرد حقوق وواجبات وعليه يجب أن يلتزم بها كل من الحاكم والمحكوم لذلك نادى توما قائلًا للحكام حدود في سلطة وعليه أن يمارس سلطته وفقا للقانون. ذلك أن توما الأكويني يرى أن القانون إلزام واحترام وأمانة في التنفيذ، والقانون الوضعي هو إرادة الشعب وليس إرادة للهوى، ولا بد من مطابقته مع القانون الطبيعي، ويؤكد للفرد أن يتولى أموره، هناك كذلك تجلّى للفكر السياسي الروماني، أن هناك عقد حكومي بين الشعب والحاكم وليس للشعب أن يسحبها منه عكس الاجتماعي. وهكذا فقد بدأ بإرساء المساواة حتى لا يعاق تنفيذ القانون وبث المحبة الإلهية التي تعانق القلوب الناس وتخلصهم من العصبية بالمجاهدة ويكون الأقرباء وجيران رفقاءهم يعمهم السلام والوحدة.

وعلى هذا فالقانون الطبيعي الذي نادى به توما الأكويني تميز بما يلي :

أولاً: القانون الطبيعي هو تعبير عن كرامة الإنسان وسلطته وحدة الإنسان ومن بين جميع المخلوقات يشارك فكريا وفعليا في نظام الكون، وطبيعته العقلانية هي ما تخوله ذلك لأن العقل هو جوهر الإنسان ونور العقل الطبيعي هو الذي يجعلنا نميز بين الخير والشر<sup>(27)</sup>



ثانياً: فهو أساس الأخلاقيات ونتيجة مباشرة للكرامة والسلطة التي تتمتع بهما الطبيعة الإنسانية.

- لقد وظف توما الاكوييني القانون الطبيعي الرواقى ، "كما جعل قبول المفهوم أرسطوطالسي للأخلاق والسياسة أمراً لا تكتنفه الشكوك"<sup>(28)</sup>.

- أما النقطة الثالثة: "فقد جعله أساساً لجميع المؤسسات، فهو المقياس الذي تميز هذه المؤسسات إليه في إطار حضاري معين، إطار كانت فيه الرغبة الأعمق والأكثر ألفة لقلوب وهي رغبة الجمع بين الحكمة الإلهية والحكمة العالمية"<sup>(29)</sup> أي تكامل بين الدين والفلسفة لقد كانت للرواقية مبعثاً لتطوير أفكار ومبادئ المسيحية وخاصة الإيمان بقانون الطبيعة، ذلك إذا كانت الطبيعة في قاموس الرواقين مرادفة للعقل والعقل مرادف لله، فإن المدينة الحقيقة للإنسانية ليست سوى مدينة الله.

إن قول الرواقين بالمساواة المطلقة وفقاً للقانون الطبيعي، لم يمنعهم من التسليم بوجود عدم المساواة (فوارق اجتماعية ومادية) وهي من إنتاج القانون الوضعي، وهذه لا تلغي إقرار بحقوق الفرد الطبيعية، والحق والقانون مصدرها ومشرعها هما العقل والطبيعة ولا تنفى أخوة الأفراد وضرورة تجانسهم لأنهم مواطنو العالم، وبهذا فقد وضع الرواقيون الأسس الفكرية للعالمية على المستوى الفلسفي بحيث فسرت المثل العليا للسياسة التي تناسب الدولة العالمية ورسمت الخطوط العريضة لفكرة أخوة إنسانية عالمية، وقد استمرت من بعدهم في شكل قانوني في ظل الإمبراطورية الرومانية ثم في شكل ديني وسياسي في ظل الفكر السياسي المسيحي والإسلامي.

وبهذا فلقد كان لمفهوم الحق الطبيعي أثر في الفكر السياسي وتشريع القوانين ، وذلك باستحداث رؤية جديدة لدراسة دور الإنسان الأساسي ومكانته ، بتأسيس لتصور جديد للإنسان كذات فاعلة في المجتمع ، بحيث

استخدمت فكرة القانون الطبيعي في نقد العادات المحلية وتهذيبها (القوانين الوضعية)، وعملت على ضرورة إقرار بمساواة الجميع أمام القانون، حيث أصبح القانون الطبيعي المحرك للفلسفات عصر الأنوار المطالبة بالحرية والمساواة. ومع القرن السادس والسابع عشر نادى بمحاربة الاستبداد بناء على الحق الطبيعي والمساواة الطبيعية.

\* أستاذة بقسم الفلسفة، بجامعة معسكر، الجزائر.

### الإحالات :

- 1- محمد السيد أحمد الكيلاني، المدارس الفلسفية في العصر الهيلنستي، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، دط، 2009، ص 321.
- 2- مجدي السيد أحمد الكيلاني، نفسه، ص 327.
- 3- جورج سباسن، تطور الفكر السياسي، ج 1، تر، حسن جلال العروسي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، دط، 2001، ص 73.
- 4- المرجع نفسه، ص 72.
- 5- مجدي السيد أحمد الكيلاني، المرجع السابق، ص 324.
- 6- بول تلتس، المرجع السابق، ص 18.
- 7- حورية توفيق مجاهد، الفكر السياسي من أفلاطون إلى محمد عبده، مكتبة انجلو المصرية، القاهرة، ط 2، (د.س.)، ص 109.
- 8- حورية توفيق مجاهد، المرجع نفسه، ص 109.
- 9- حورية مجاهد، المرجع السابق، ص 110.
- 10- جورج سباسن، تطور الفكر السياسي، ج 1، ص 11.
- 11- حان توشار، تاريخ الأفكار السياسية من اليونان، العصر الوسيط، II، تر ناجي الدراوشة، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر دمشق ط 2010، ص 149.
- 12- فضل الله محمد اسماعيل، حقوق الإنسان بين الفكر الغربي والفكر الإسلامي، مكتبة بستان المعرفة، القاهرة، دط، 2006، ص 95.
- 13- عبد الرحمن خليفة، منال أبو زيد، الفكر السياسي الغربي، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، دط، 2003، ص 87.
- 14- فضل الله محمد اسماعيل، حقوق الإنسان بين الفكر الغربي والفكر الإسلامي، ص 96.
- 15- جورج سباسن، تطور الفكر السياسي، ج 1، ص 81.
- 16- حورية مجاهد، فلسفة السياسة من أفلاطون إلى محمد عبده، ص 125.
- 17- جورج سباسن، تطور الفكر السياسي، ج 1، ص 75.
- 18- فضل الله محمد اسماعيل، حقوق الإنسان بين الفكر الغربي والفكر الإسلامي، ص 95.
- 19- جورج سباسن، المرجع السابق، ص 74.
- 20- حورية مجاهد، فلسفة السياسة من أفلاطون إلى محمد عبده، ص 127.
- 21- فضل الله محمد اسماعيل، سعيد محمد عثمان - نظرية القانون الطبيعي في الفكر السياسي الغربي - مكتبة بستان المعرفة - مصر 2006، دط، ص 26.
- 22- محمد أحمد كيلاني - المدارس الفلسفية في العصر الهيلنستي المكتب، الجامعي الحديث، الإسكندرية، دط، 2009، ص 343.
- 23- جورج سباسن، تطور الفكر السياسي، ج 1، ص 163.
- 24- فضل الله محمد اسماعيل، سعيد محمد عثمان، نظرية القانون الطبيعي في الفكر السياسي الغربي، ص 27.
- 25- فاضلي إدريس، المرجع السابق، ص 133.
- 26- عمار بوحوش، تطور النظريات والأنظمة السياسية - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 1972، ص 34.
- 27- ملحم قربان، من قضايا الفكر السياسي القانون الطبيعي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط 1، 1982، ص 72.
- 28- ملحم قربان، المرجع نفسه، ص 72.
- 29- المرجع نفسه، ص 73.